القرآن وصفحات للمرأة في حياة الأنبياء

يقول الله عز شأنه في أول سورة النساء :

« يَاأَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً » .

وهكذا يخبرنا الحق جل جلاله أنه برأ الإنسانية من ذكر وأنثى ، وسوَّى بينهما فيما يقبل التسوية ؛ ولكن الرجل – بظلمه أو جهله – هضم المرأة في كثير من العصور حقها ، وأنكر عليها شخصيتها ، وانحرف أحياناً بها أو معها.

وجاء الإسلام العظيم فأنصف وعدل ، وأخذت المرأة في ظلاله الكريمة الرحيمة تظهر بكرامتها ومكانتها . ونحن نتذكر جيداً صفحات المرأة في حياة خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، فهناك « آمنة » التي حملت ووضعت ، و « حليمة » التي أرضعت ورعت ، « وخديجة » التي شاركت ووفت ، و « أسماء » التي أعدت الطعام وحملت الزاد وشقت النطاق ، وهناك جماعة « بنات النجار » التي استقبلت ورحبت ، و « عائشة » التي أحبت وأعزت ، رضوان الله عليهن جميعاً .

وحين نرجع إلى سير الأنبياء والمرسلين نجد للمرأة تاريخها الكريم المجيد ، فى ظل الإيمان بالله ، والاتجاه إلى حماه ، وحسبنا فى مقامنا هذا أن نستعرض ما كان للمرأة من أثر فى حياة كليم الله موسى عليه السلام .

وأول ملحظ لها نلحظه يتمثل فى « أم موسى »(١) ، فقد قيل لفرعون المتكبر الجبار إن مولوداً من بنى إسرائيل سيولد ، وسيكون على يديه زوال ملكه ، فأبى فرعون إلا أن يهلك الألوف المؤلفة فى سبيل الإبقاء على حكمه وملكه وسلطانه ، وقرر بجبروته أن يقتل الذكور من المواليد ...

وتحمل أم موسى بوليدها ، وكلما دنا موعد الميلاد زاد قلقها وخوفها ، فلما وضعته كان خوفها عليه أضعاف أضعاف فرحها بقدومه . ولكن الله جل جلاله يلهمها ما يثبت فؤادها : « وأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى الْيَمِّ ، وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِى ، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ، وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ » (القصص الآية ٧) .

وتستجيب أم موسى الطيبة الطاهرة ، وتصنع لابنها صندوقاً ، وتلقيه فى ماء النهر ، وكأنها ألقت معه عقلها وقلبها ، فأصبح صدرها خالياً من الهدوء والطمأنينة ، فارغاً من الراحة والاستقرار ، ولولا أن الله سبحانه ربط على قلبها بالإيمان ، وشد عزمها باليقين ، لكشفت السر ، وأفسدت التدبير : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ(٢) ، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (القصص الآية ١٠) .

ولم يكن أمامها من حيلة أو وسيلة بعد ذلك ، إلا أن تأمر ابنتها -

---

(١) قيل إن اسمها « لوحا بنت هاند » ، وقيل : يوحابد ، وقيل غير ذلك .

(٢) لتصرح بأنه ابنها .

أخت موسى - بمراقبة الصندوق من وراء ستار : « وقالتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ(١) ، فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ ، وهُمْ لا يَشْعُرُون » (القصص الآية ١١) .

وهنا جاء واجب الأخت الشقيقة فى حياة موسى عليه السلام ، فأخذت تتابع الصندوق ، وبداخله الوليد ، من مكان بعيد ، تعلو به موجة ، وتنزل به أخرى ، وهو لا يغيب عن لحظها ، وإن كانت لا تُشعر أحداً أبدا بأنها تتابعه أو تلاحظه .

* * *

ويمضى الموج بالوليد الصغير الرقيق ، داخل الصندوق ، حتى يبلغ قصر فرعون ، ويلتقطه أهله ، والأخت ترى وتنظر وتراقب .

وهمَّ جبروت البغى والطغيان أن يعصف بالوليد الضعيف الوحيد ، ولكن رب الأرباب ومهيئ الأسباب يلقى فى قلب آسية ، زوجة فرعون فيضاً من الرحمة والرقة والحنان ، والانعطاف إلى هذا الرضيع الجديد : « وقالت امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ : قُرَّةُ عَيْنٍ لى ولك ، لا تَقْتُلُوهُ ، عسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ ولدا ، وهُمْ لا يَشْعُرُون » (القصص الآية ٩) .

فترجو آسيةُ زوجَها أن يُبقى عليه ، وبعد لأى يستجيب الطاغية الجبار لإلحاح الرجاء ، ولكن الطفل المحفوف بعناية الله يفاجئهم بأنه لا يقبل ثدى امرأة ليرضع ، برغم أنهم عرضوا عليه مختلف النساء ومختلف الأثداء : « وحَرَّمْنا عَلَيْهِ المَراضِعَ مِنْ قَبْلُ » (القصص الآية ١٢) .

وهنا تقبل الأخت الشقيقة الكتوم ، فى مظهر الناصح الشفيق : « فَقالَتْ : هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ ، وهُمْ لَهُ ناصِحُون » ٢ .

---

(١) قصيه : تتبعى أثره

فرحوا بذلك ، وطربوا له ، فقد صار هذا الوليد شغلهم الشاغل : « وألْقَيْتُ عليْك محبَّةً مِنِّي ، ولتُصْنع عَلى عيْنِي » (سورة طه الآية ٣٩) .

ودلتهم الأخت على بيته وبيتها ، على أمه وأمها ، وهكذا تأبى عناية الله القادر إلا أن يحمل آل فرعون بأيديهم موسى الوليد إلى أمه التي خافت عليه منهم كل الخوف : « فَرَدَدْناه إلَى أُمِّه كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها ولا تَحْزَنَ ، ولِتَعْلَمَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، ولكنَّ أكْثَرهُمْ لا يعْلمُون » (القصص الآية ١٣) .

* * *

ويكبر موسى مع الأيام ، ويبلغ أشده ، وتضطره بعض الأحداث إلى الخروج من موطنه إلى مكان بعيد ، إلى « مدين » ، وهناك شاهد بئراً ازدحم حولها الرجال الأشداء لسقي الدواب والأنعام ، ومن ورائهم فتاتان لا تستطيعان سقي أنعامهما لشدة الزحام ، فتتحرك فيه رجوليته وفتوته ، فيسقي لهما بقوته وعزيمته وأدبه ، وتلمح الفتاتان براءة الشاب الطهور ، وتعودان إلى أبيهما — شعيب أو ابن عمه — وتخبرانه بما حدث ، وتقول إحداهما منوهة بقوته وأمانته وفضيلته : يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأمين .

وتكون النتيجة أن يتزوج موسى هذه الفتاة الحازمة اللماحة ، وتشاركه أعباء الارتحال والانتقال ، ومتاعب الحياة ، فتكون نعم الحليلة ، ونعم الشريكة ، وتعطي صورة أخرى من كفاح المرأة في تاريخ الأنبياء :

« ولَمَّا وَرَدَ ماءَ مدْيَنَ وجَدَ عليْه أمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ . ووجَدَ مِنْ دُونِهم امْرأتَيْن تذُودَانِ ، قالَ : ما خطْبُكما ؟ . قَالَتَا : لا نسْقِي حتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وأبُونَا شَيْخٌ كبِيرٌ . فسَقَى لَهُما ، ثُمَّ تولَّى إلى الظِّلِّ ، فقالَ : ربِّ إنِّي لما أنْزلْتَ

إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ، فجاءتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلى اسْتِحْياءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنَا ، فلمَّا جاءَهُ وقصَّ عَلَيْهِ القَصص قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِن القَوْمِ الظَّالِمِينَ . قالتْ إِحْدَاهُما يا أَبتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ. قالَ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ ، على أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ ، فإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فمِنْ عِنْدِكَ ، وما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذلكَ بَيْنِي وبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ ، واللهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (١) (القصص الآيات من ٢٣ - ٢٨) .

* * *

وتدور الأيام وتتوالى الأعوام ، ويدعو موسى إلى ربه ، مؤيَّداً بالمعجزات والبراهين ، وتشهد آسية امرأة فرعون - باستقامة طبيعتها وسلامة فطرتها - شواهد الحق والصدق والإخلاص من موسى عليه السلام ، فتؤمن به ، وتتابعه فى دعوته الإلهية الربانية الصافية كما جاءت من عند الله ، وتعلن إيمانها على الرغم من تهديد زوجها الطاغية ، وصبه ألوان العذاب والبلاء عليها .

وهنا يتجلى موقف جديد من مواقف المرأة فى حياة موسى الكليم عليه السلام ، وفضلت آسية ما عند الله على جاه الحياة ، وخلَّد القرآن بطولتها الإيمانية ، فقال فى سورة التحريم : « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ ، ونَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ، ونَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ » (الآية ١١) .

---

(١) تدودن : تمنعن لعم عن الماء بسبب الزحام . ويصدر لرعاء : يصرف الرعاة دوابهم
تأجرنى : تكون فى أجيراً وحجج : سنين .

واستجاب الرحمن النداء ، وحقق الرجاء ، وعطر بسيرتها مختلف الأرجاء .

* * *

ثم تدور الأيام وتتوالى الأعوام ، ويشتد الصراع بين موسى وقارون الذى طغى وبغى ، واغتر بأمواله وكنوزه : « إنَّ قارُون كان مِنْ قَوْمِ مُوسَى فبغى عَلَيْهِم ، وآتَيْناهُ مِن الكُنُوزِ ما إنَّ مفاتِحهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولِى القُوَّةِ ، إذْ قال لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرحْ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفرِحِينَ ، وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وأحْسِنْ كما أحْسَنَ اللهُ إليكَ ، ولا تَبْغِ الفَسادَ فِى الأَرْضِ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ . قالَ إنَّما أوتِيتُه عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ، أوَ لَمْ يعْلَمْ أنَّ اللهَ قَدْ أهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وأكْثَرُ جَمْعاً ، ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنوبِهِمُ المجْرِمُون » (القصص من ٧٦ ٧٨) .

وحاول قارون بكفره وفجوره أن يتخلص من موسى ومكانته وزعامته ، ولو بأحط الوسائل وأخس الطرق ، فاتفق قارون مع امرأة بغى ، على أن تتهم موسى أمام الناس بأنه راودها عن نفسها ، وارتكب معها الفاحشة ، ووعدها على ذلك مالا كثيراً .

ويتجمع الناس ، ويتبجح المجرم الأثيم ، ويتوقع الافتراء البذىء ، وتقف المرأة لتقول كلمتها ، ويحس موسى بدقة الموقف وخطورته ، فيقبل نحو المرأة بإخلاصه وبراءته وصدقه ، ويناشدها بالله الذى خلقها ، وقدرته التى تحيط بها ، أن تقول الحق ، وتنطق بالصدق .

ويتزلزل كيان المرأة ، وتتذكر ربها وقدرته وسلطانه ، وتستيقظ فيها فطرة الإيمان العافية ، فإذا هى تعترف بالحقيقة ، وتفىء إلى الحق ، وتقرر أن قارون هو الذى دفعها إلى موقف الافتراء ، ويحق الله الحق بكلماته ،

فتظهر براءةموسى على يد هذه المرأة ، وتعلن إيمانها بدعوته .

وتكون عاقبة قارون أسوأ العواقب :

« فَخَسَفْنَا به وبِدَارِه الأَرْض ، فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وما كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ ، وأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مكانَهُ بالأَمْسِ يَقُولُونَ : وَيْ كَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه ويَقْدِرُ ، لَوْلا أَنْ مَنَّ اللهُ علَيْنا لخَسَفَ بِنَا ، وَيْ كأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ ، تِلْكَ الدَّارُ الآخِرةُ نَجْعَلُها لِلَّذِين لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ولا فَساداً ، والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(سورة القصص الآيات ٨١ – ٨٣)

* * *

إن المرأة حين تستقيم طبيعتها ، وتحيا فيها عقيدتها ، تمثل الأمومة بحنانها وعطفها ، كما فعلت أم موسى ، وتسارع إلى الانفعال والتأثر – أكثر من الرجل – كما فعلت آسية امرأة فرعون حين شاهدت موسى الرضيع ، وتتعب فى سبيل أخيها وتسهر عليه . كما فعلت أخت موسى حين قصت أثره، وأسهمت فى عودته إلى أمه ، وتدرك بسهولة وسرعة أمانة الرجل وأخلاقه كما فعلت بنت شعيب ، وتضحى المرأة فى سبيل عقيدتها ولو بحياتها كما فعلت آسية ، حيث فضلت الموت على ترك الإيمان ، وتخاف وترتدع إذا تذكرت خالقها وبارئها ، كما فعلت المرأة التى تآمر معها قارون .

فهل من سبيل لكى تعود المرأة اليوم فى دنيا الناس إلى صراط ربها العلى الكبير ؟